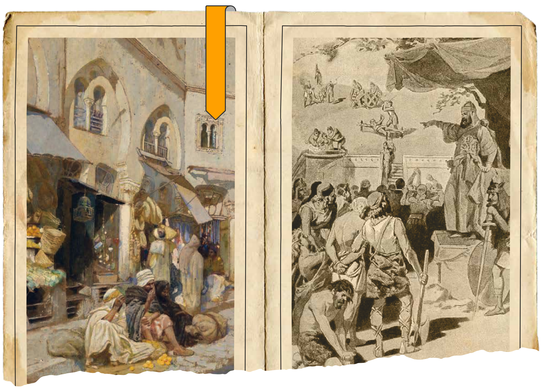

الأتراك والفرس في مواجهة العرب

تقاطعات عنصرية على تهجير البشر واحتلال الحجر

إن مظاهر الاستعلاء الفارسي والتركي تجاه العرب لا يمكن تفكيكها في مقالة أو مقالتين، وإنما الأمر يحتاج إلى أبحاث ومجلدات من أجل استيفاء "الظاهرة" حقها من التحليل والفهم. والثابت أن اعتناق الفرس والترك للدين الإسلامي لم يُخمِد عقيدة الحقد والكراهية تجاه الفاتحين الأوائل، بل اعتبر بعضهم أن الإسلام كان سببًا في رفع العرق العربي إلى مصاف التسيُّد والسيادة، وهو ما ترفضه روح الإسلام الذي لا يفرق بين عربي ولا أعجمي ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى.

وارتباطًا بمحاولات انسلاخ الفرس عن الإسلام، ومحاولات تأسيس هوية تعريفية خاصة، "أنحى المفكرون العلمانيون الواعون لتخلف إيران وعجزها إذا قورنت بالغرب جانبًا من لائمة التخلف الإيراني على الإسلام، ودفعهم ذلك إلى السعي لتأسيس تعريف جديد أكثر أصالة ومصداقية لمفهوم (الإرّيَنَة) يُبني على الماضي ما قبل الإسلام".

إن رفض الفرس للتدين الذي حمله العرب من قلب الخلافة الإسلامية إلى أطرافها لن يقف عند هذا الحد، بل تعداه ليرتقي إلى مستوى الحقد الوجودي على كل ما هو عربي، والذي يبقى في نظر بعض عُتاة المتشددين الفرس المسؤول الأول عن انهيار عقيدة الشمس والنار.

وهذا ما جعل ميرزا كرماني (1853- 1896) يرى في الإسلام "دينًا غريبًا فرضته على الأمة الآرية النبيلة.. حفنة من آكلي السحالي، الحفاة العراة، بدو يقطنون الصحراء، إنهم العرب المتوحشون، ما جلب دمار الحضارة الإيرانية".

وإذا كان تروتسكي قد رأى في الحقد "أسهل معاول الصراع الطبقي"، فإن الفرس رأوا في هذه العقيدة السلوكية أحد أهم معاول الصراع الحضاري، وبالتالي فإن استمرار أي طرف لا يمكن أن يتم إلا على أنقاض الطرف الآخر، وهنا تبنَّى الفرس عقيدة متطرفة تتلخص في اعتبار الكرة الأرضية لا تتَّسع لهذين العِرقَين، وبالتالي وجب مسح المكون العربي جنسًا ولسانًا وحضارة.

إن التراكم السلوكي السلبي دفع الفرس إلى العمل على ابتلاع الأراضي العربية، بدءًا من الأحواز، حيث اجتهدوا في حرمان العرب من امتلاك الأراضي الزراعية ومصادرة جميع الأراضي التي كانوا يملكونها، وكذلك العقارات.

على الجهة المقابلة لم يختلف تعامل الترك مع العرب عن تعامل الفرس، فبالرغم من وجود تقاطعات عقدية شديدة بين جمهور العرب والترك، فإن ذلك لم يمنع الأتراك من تبني عقيدة عِرقية استعلائية تجاه العرب، خاصةً أنهم رأوا في العرب الحاضنة الشرعية للرسالة السماوية التي نزلت بين ظهرانيهم، ودافعوا عنها بالنفس والمال والجهد، وكانوا خير سند للرسول محمد صلى الله عليه وسلم حتى عمت رسالته ربوع العالم.

إن بدايات القرن السادس عشر الميلادي عرفت انطلاق التنزيل المادي للإستراتيجية التركية في حق العرب، حيث عانى هؤلاء من حكم العثمانيين "الذين جلبوا إلى دمشق الخوازيق منذ بداية احتلالهم عام 1516م، ووزعوها على كل حارة من أجل نشر الرعب بين السكان، فكان من يجرؤ على انتقاد السلطة الجديدة مصيره "الخوزقة".

> **إفرازات عنصرية للقوميتين الفارسية والتركية؛ كان كره العرب محورها**

ولعل ما قام به الأتراك في حق العرب تجاوز ما قام به المستعمر غير المسلم (إذا ما اقتصدنا في العبارات)، على اعتبار أن الاستعمار الغربي كان يريد نهب خيرات العرب مع محاولة نسج علاقات ودية ومتداخلة معهم، ولعل هذه الإستراتيجية جعلت العرب يقاومون الاستعمار الغربي، وفي الوقت نفسه ينفتحون ويمتحون من تجاربه ويستفيدون من خبراته في مجموعة من المجالات.

وعلى النقيض من ذلك يُجمع المؤرخون أن الوجود العثماني في المنطقة العربية خلق حالة من "السبات الحضاري" امتدت في بعض المناطق لقرون من الزمان، ذلك أن الأطماع التركية في المنطقة لم تعكس الشعارات التي رفعها آل عثمان، بل على النقيض من ذلك كان دخولهم إلى المنطقة إيذانًا ببداية تنزيل عقيدة عنصرية حاقدة واستئصالية.

في هذا الصدد نجد أحد مؤرخي دمشق، وهو شمس الدين بن طولون، يصف دخول الأتراك إلى دمشق فيقول: "هجمت العساكر الرومية على دمشق وضواحيها للسكنى، وأخرجت أناسًا كثيرة من بيوتهم، وزُمِيّت حوائجهم ومؤونهم، وتعرَّضوا لشدة لم تقع على أهل دمشق من قبل"، ويضيف قائلًا: "جرى ترحيل أهل فيسارية القوّاسين في دمشق، وتحويل محلتهم إلى مطبخ السلطان سليم، فيما صدر أمر سلطاني بمصادرة جزء كبير من القمح والشعير من بيوت أهل دمشق، وكتب الدفتردار إلى كل عشر قرى مرسومًا بإحضار رؤسائها وأكابرها ومعهم الخدم، فحضروا، فطلب منهم مغل (محصول الأرض) هذه السنة".

إن هذه المشاهد لم تكن لتشكل الاستثناء في تعامل الأتراك مع العرب، وإنما كانت القاعدة والسُّنة التي رسَّخها هؤلاء في المنطقة طيلة مدة احتلالهم للبلاد العربية، وهو التصرف العنيف الذي دفع العرب بصفة عامة، وعرب نجد والحجاز بصفة خاصة، إلى إعلان الحرب ضد الاحتلال العثماني، والانتصار لأصالة الدين الإسلامي وتطهير الجزيرة العربية من قوة استعمارية كان الانتصار للدين آخر هَمها وتطوير المنطقة آخر اهتماماتها.

المراجع:

1) جويا بلندل، صورة العرب في الأدب الفارسي الحديث (عمَّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2007).

2) حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك (القاهرة: الدار الثقافية للنشر، 2001).

3) سيار الجميل، العثمنة الجديدة.. القطيعة في التاريخ الموازي بين العرب والأتراك (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015).

4) محمد بن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998).